Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الصور ، إذ يكفى أن نختار حدثا ونحكيه لنشكل صورة سردية ، يقول مثلا : «فى مرحاض المقهى الإسبانى تصاعد بولى إلى فوق مثل نافورة ، تبلل سروالى ويدى ، تناولت قهوة بالحليب» المحذوف هنا ــ أو المسكوت عنه ـ هو غسيل اليد على الأقل ، لكن رائحة السروال ستظل عالقة به ، مما يكسب زهرته عبقا مضادا . وهو لايستخدم أى تشبيه هنا ، دعك من النافورة المحصورة فليست هى المشكلة ، بل يتابع حكى تفاصيل حياته بطريقة « طبيعية» ، وأبرز ما فى هذه الطبيعية أنها تحتفل بقبح الحياة وقدريتها ، بحيث يصبح « هجاء الذات» نقدا للمجتمع وتمردا على «المكتوب» فيه .

بيد أن المفارقة الفادحة فى هذا الفصل المعبأ بالمشمومات لا تأتى إلا فى نهايته ، عندما تشتعل محرقة قصر الباشا الموالى للاستعمار وتفحم عبده الأسود ، على مقربة من جنود الاحتلال الإسبانى الذين لايتدخلون ، « فتمتلئ الساحة بضباب ذى رائحة كريهة خانقة ينفثه رجال الصحة ، لكن رائحة الشحم البشرى المحترق كانت أقوى ، ظلت عالقة فى شامات الناس» . وبالرغم من أننا ننتقل هنا من الخاص إلى العام ، من الراوى إلى المشهد النضالى المحموم للجماهير ، إلا أن السادية ذاتها ، وتمجيد البشاعة وتكريس القبح اللا إنسانى تظل السمة الغالبة على سلوك الآخرين ، فحرق جثث العملاء ونهب ممتلكاتهم كناية أخرى عن تعذيب الذات الجماعية وجلدها بعد أن تنشطر إلى طرفين يختل بينهما ميزان القوى فى لحظة محددة . ويظل انبعاث الرائحة الكريهة أبلغ إشارة لتفسخ الحياة ، وهى تحتدم بالصراع فى النفس والخارج ، كبديل لعطر الطبيعة الغائب المفتقد .

وإذا كان « كونراد » يقول بالنيابة عن الروائيين : « إن مهمتى . . هى أن أجعلك ترى» فإن ذلك يحدث هنا ، بغض النظر عما إذا كان مانراه محببا لنا أم لا ، بل إن كراهته تجعله أعلق بالذاكرة وأشد اقتحاما لمعطيات الحس وتأبيا على النسيان ، نحن نرى ونجبر على التذكر ولأننا بإزاء رؤية مستمرة لهذا الجانب البشع الفاحش من الحياة ونكهتها ، فإن « تلك الرائحة» لن تنقطع عن الفصول التالية ، فالفصل الرابع على وجه التحديد عنوانه « القمل المحروق له رائحة بشرية» ،